حضور الصّحابة في التّراث الأندلسي
كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»
لابن عبد البَر نموذجا

د. الصّادق كرشيد

مُلَخّصُ البَحْث

من المعلوم أن حضور الصحابة في تراث المغرب والأندلس عموما كان حضورا مميزا بفضل ما بذلوه من جهود في نشر الإسلام، وتحقيق الوئام بين ساكني تلك المناطق، مما مكنهم من أن يحظوا بالكثير من مظاهر التقدير والعناية كما يتجلى ذلك في عديد من المجالات.

ويمكن اعتبار موسوعة «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» للفقيه الحافظ الإمام يوسف بن عبد الله بن عبد البر النّمري، أحد أبرز وجوه ذلك الاهتمام من طرف الأندلسيين مما شجعنا على اختياره كنموذج سنحاول من خلاله تشخيص منهج أحد أعلام الأندلس في التعريف بصحابة رسول الله ﷺ، والذَّبّ عنهم، وما حققه من إضافات منهجية ومعرفية، وإشعاع داخل الأندلس وخارجها.

وهكذا فإن هذه المحاولة تتنزل في إطار ما يبذل من جهود من أجل رد الاعتبار لصحابة رسول الله ﷺ في ظل ما يواجهه الإسلام اليوم من حملات تشويه طالت مختلف رموزه ومرتكزاته، وفي سياق التأسيس لخطاب ديني مختلف يجذّر قيم الاعتزاز بصحابة رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، والذود عنهم، وفق ما يتناسب مع خصوصية سياقاتنا المحلية والإقليمية والدولية.

الباحث في سطور

الدكتور الصّادق كُرشيد korchids@yahoo.fr

- أستاذ التعليم العالي بجامعة الزيتونة بتونس.
- أستاذ الحديث والسّيرة بالمعهد العالي لأصول الدّين.
- رئيس وحدة بحث «الحديث والسّيرة» بجامعة الزّيتونة.
- دكتوراه الدولة في علوم الحديث.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلميّة الوطنيّة والدّوليّة، ونشر له عشرات الأبحاث في مجلات علمية محكمة.

من أعماله المنشورة:

- كتاب عناية الجاحظ بالقرآن والسنة.
- كتاب أبو داود السجستاني ومنهجه في علم الحديث.
- كتاب المرجع في المعجزات والنّبوءات.
- كتاب ضوابط الاحتجاج بالحديث النبوي.

مُقَدِّمَة

من المعلوم أنّ حضور الصّحابة الكرام - رضوان الله عنهم - في تّراث بلاد المغرب والأندلس عموما كان حضورا مميّزا بفضل ما بذلوه من جهود في نشر الإسلام، وحقّقوه من وئام بين متساكني الأقاليم المفتوحة، مشرقا ومغربا، مما جعلهم يُحظوْن على مرّ القُرون بالكثير من مظاهر التقدير والعناية.

ويمكن اعتبار «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» للفقيه الحافظ الإمام يوسف بن عبد الله بن عبد البَر النّمري، أحد أبرز مظاهر ذلك الاهتمام من طرف علماء الأندلس، الأمر الذي شجّعنا على اختياره كنموذج سنحاول من خلاله تشخيص منهج مصنِّفه في التّعريف بالصّحابة الكرام، وذَوْدِه عنهم، وما كانت لابن عبد البر من إضافات، وتحقّق له بفضل ذلك من إشعاع داخل الأندلس وخارجها.

تتنزّل هذه المحاولة في إطار ما يُبذل من جهود من أجل ردِّ الاعتبار لصحابة رسول الله ﷺ في ظلّ ما يواجهه الإسلام اليوم من حملات تشويه طالت مختلف مُرتكزاته ورُموزه، وفي سياق التأسيس لخطاب دينيّ مختلف يجذّر قيم الاعتزاز والاقتداء بذلك الجيل والذّود عنه، وفق ما يتناسب مع خصوصيّة سياقاتنا المحليّة والإقليميّة والدّوليّة.

❁ الحياة الفكريّة بالأندلس في القرنين الرّابع والخامس للهجرة:

تميّزت أغلب الفترة التي عاشها أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البَرّ النّمري القُرطبي بالاستقرار السّياسي، والعطاء المعرفي بالرّغم ما شهدته الأندلس من سنة 399هـ و إلى 422هـ من قلاقل[1]. وما كانت الأندلس لتشتهر بكلّ تلك الحركة الفكريّة لولا ما تميزت به من حريّة فكريّة، وما كان يلقاه رجال الفكر من احترام، ويُحظوْن به من تشجيع من طرف أمراء البلاد الذين كانوا يتنافسون في استقطاب العلماء وكسْب ودّهم. وهو ما جعل مختلف الفئات الاجتماعيّة تقبل على طلب العلم، ودفع بالعديد من العلماء من مختلف المذاهب إلى شدّ الرّحال إليها والإقامة بها[2].

في هذا المناخ الفكري وُلد أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البَرّ النّمري(368 ـ 463 هـ/ 978 ـ 1070م)، وترعرع وسط عائلة من عائلات قُرطبة ذات الأصول العربيّة، المعروفة بعطائها العلمي، بدءا بجدّه العابِد الزّاهد محمد بن عبد البَر بن عاصم النّمري[3]، وانتهاء بوالده العالِم المرجع عبد الله بن محمد بن عبد البَر، أحد أهل الحلّ والعَقد أيام الخليفة الحكم بن عبد الرحمن، الملقّب بالمستنصر[4]، وهو ما يسّر لأبي عمر منذ وقت مبكّر ملاقاة كبار السّاسة وفحول العلماء.

---

(1) وهي المرحلة المسماة بـ «الفتنة القُرطبية».

(2) من بين العلماء الذين رحلوا إلى الأندلس، واستقروا بها إلى أن توفاهم الله ﷻ: عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي (392هـ/ 1001م)، ومحمد بن أحمد الفارسي القيرواني(ت359هـ/ 969م)، ومحمد ابن العباس بن يحي الحلبي (376هـ/ 986م)، ومحمد بن أحمد بن حامد المصري(385هـ/ 995م)، وغيرهم كثير.

(3) تكملة الصّلة (1/ 371).

(4) جذْوَة المقْتبس في تاريخ ولاة الأندلس(7/ 399).

تتلمذ أبو عمر على نُخبة متميّزة من أساطين الفِكر في عصره، تجاوز عددهم المائة عالمٍ، مما يؤكّد ازدهار عصره بالعِلم والعُلماء، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أشهر الذين تأثّر بهم، وكان لهم الفضل في نحت شخصيّته العلميّة:

> خلف بن القاسم بن سهل الأزدي، أبو القاسم، المعروف بابن الدبّاغ (ت393هـ/ 1002م) الرّحالة المشهور، صاحب المكتبة الثّرية، والمصنّفات المتميّزة.كان ابن عبدالبَر كثير الملازمة له، قال أبو عمر عنه: كان شيْخا فاضلا، مُحدّثا، مُكثرا، حافظا، وكان من أعلم النّاس برجال الحديث، وأكتبهم له، وأجمعهم لذلك، وللتّواريخ، وللتّفاسير، وهو محدّث الأندلس في وقته[1].

> عبد الوارث بن سفيان بن جبرون، أبو القاسم (ت395 هـ/ 1004م)، صاحب الأسانيد العالية بفضل ملازمته لكبار العلماء، وفي مقدّمتهم قاسم بن أصبغ. وهو من أوائل الشّيوخ الذين تتلمذ عليهم ابن عبد البر، فضلا عن كونه قرين والده[2].

> أبو عمر أحمد بن عبد الله الباجي(ت396هـ/ 1005م)، أحد الذين أكثر ابن عبد البَر من الأخذ عنهم. قال ابن عبد البَر مشيداً بشيخه: كان أبو عمر الباجي إمام عصره، وفقيه زمانه، جَمَع الحديث، والرّأي، والبيت الحسن، والهُدى والفَضل، ولم أر بقُرطبة ولا بغيرها من كُور الأندلس رجلا يُقاس به في علمه بأصول الدّين وفروعه، كان يُذاكر بالفقه، ويُذاكر بالحديث والرّجال»[3].

> عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المشهور بابن الفرضي(ت403هـ/ 1012م) من كبار أعلام قُرطبة، الرّحالة في طلب العلم مَشرْقا

---

(1) جذوة المقْتبس (7/ 326).

(2) الصّلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم(3/ 382).

(3) جذوة المقْتبس(1/ 202ـ 203).

ومَغرِبا، صاحب ابن عبد البَر، ونظيره في الطّلب والأخْذ عن عُلماء كُثر، كما أكّد ذلك ابن عبد البَر: كان صاحبي ونظيري، أخذتُ معه عن أكثر شيوخه، وأدرك من الشّيوخ ما لم أدرك أنا، صَحِبتُهُ قديما وحديثا»[1].

➢ أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي، المعروف بابن المكَّوى(ت410هـ/ 1011م)، شيخ فقهاء قُرطبة، وكبير مُفتيها، العالِم المعتدِل المستنير، المعروف لدى العامّة والخاصّة بنزاهته، وعدم مُداهنته[2]، لازمه ابن عبد البَر طويلا، وكان كثير الرّجوع إليه، والثّناء عليه.

❁ **كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»:**

ترك ابن عبد البَر مكتبة غنيّة بفضل ما صنّفه من مؤلَّفات تجاوز عددها الخمسين مُصنَّفا، غطّت جلّ العلوم الإسلاميّة، وفي مقدّمتها علوم الحديث رواية ودراية، مؤلفات تسابق طلبة العلم في روايتها، ونَسْخها، وشرحها، والتّذييل عليها، بسبب غَزارة مادّتها العلميّة وثَرائها، إلى جانب براعة صاحبها في التّأليف كما شهد له بذلك ابن حزم: ولصاحبنا ابن عبد البَر المذكور كُتُب لا مثيل لها... منها كتابه في الصّحابة سماه الاستيعاب في أسماء المذكُورين في الرّوايات والسّير والمصنّفات من الصّحابة رضي الله عنهم، والتّعريف بهم، وتلخيص أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم على حروف المعجم، اثنا عشر جزءا، ليس لأحد من المتقدّمين مثله، على كثرة ما صنّفوا في ذلك»[3].

---

(1) الصّلة (5/ 259).

(2) الصّلة (11/ 53).

(3) نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب (2/ 180).

ويُعتبر كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» من أمّهات كُتب التّراجم، وأصلا من أصول التّاريخ الإسلامي، ومن ثمّة لَبِنة من لبِنات مكتبة ابن عبد البر التي وإن نالت حظّا من اهتمام العلماء والمحقّقين شرحا، وتعليقا، واختصارا، فإنّ كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» مازال - فيما أعلم - لم يحظ بما يليق به من التّحقيق العلمي الرّصين، والدّراسات العلميّة المعمّقة، مع احترامنا لكلّ ما تيسّر لنا الإطّلاع عليه في غير ما نحن بصدد الحديث عنه من جهود في التّعريف بابن عبد البَر وآثاره ومواقفه.

أ - موضوع الكتاب:

ضم «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» بتحقيق محمد علي البجاوي 4225 ترجمة، كان ابن عبد البَر قد خصّ بها جمهرة من الصّحابة والتّابعين كما نصّ على ذلك في مقدّمة «ديوانه» - والتّسمية له - حيث قال: لم أقتصر في هذا الكتاب على ذِكْر من صحّت صُحبته ومجالسته حتى ذكرنا من لقي النّبي ﷺ ولو لُقْية واحدة، مؤمنا به، أو رآه رؤية، أو سمع منه لفظة فأدّاها عنه، واتّصل ذلك بنا على حسب روايتنا. وكذلك ذكرنا من وُلد على عهده ﷺ من أبويْن مُسلميْن، فدعا له، أو نظر إليه، وبارك عليه، ونحو هذا، ومن كان مؤمنا به قد أدّى الصّدقة إليه، ولم يردّ عليه. وبهذا كلّه يُستكمل القرْن الذي أشار عليه رسول الله ﷺ على ما قاله عبد الله بن أبي أوفى صاحب رسول الله ﷺ[1].

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (1/ 24).

ب ـ دوافع التّأليف:

افتتح ابن عبد البَر كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» على عادة الأندلسيين بمقدّمة كان من بين ما اشتملت عليه دوافع تأليفه لكتاب «الاستيعاب»، والتي يمكن أن تُلخّص في الآتي:

- التّعريف بالصحابة الكرام ـ رضوان الله عنهم ـ باعتبار ذلك من وجهة نظره مما لا غِنى عنه بالنّسبة إلى كلّ مُسلم، قال أبو عمر: ومعلوم أنّ من حُكُم بقوله، وقُضي بشهادته، فلا بُدّ من معرفة اسمه، ونسبه، وعدالته، والمعرفة بحاله[1].

- استعراض ما غَفَل عن ذكره السّابقون من مصادر قد تُمكِّن الباحث أكثر من التعرّف على ذلك الجيل، والتّعريف به، قال أبو عُمر: وهم [المصنفون في الصّحابة] مع ذلك قد أضْربُوا عن التّنبيه على عيون أخبارهم التي يُوقف بها على مراتبهم[2].

- جمع المتفرّق من أخبار صحابة رسول الله ـ رضوان الله عنهم ـ وعرضه بطريقة محبّبة للنّفس، مشجّعة على البحث، قال أبو عمر: ورأيت كلّ واحد منهم [من سبقه بالتأليف] قد وصل إليه من ذلك شيء ليس عند صاحبه، فرأيتُ أن أجمع ذلك، وأختصره، وأقرّبه على من أراده، وأعتمد في ذلك على النّكت التي هي البُّغية من المعرفة بهم، وأشير إلى ذلك بألطف ما يمكن، وأذكر عيون فضائل ذي الفضل منهم، وسابقته، ومنزلته، وأبيّن مراتبهم بأوجز ما تيسّر وأبلغه، ليستغني اللّبيب بذلك، ويكفيه عن قراءة التّصنيف الطّويل فيه[3].

---

(1) الاستيعاب (1/ 19).

(2) نفسه (1/ 20).

(3) نفسه (1/ 20).

< التّمييز بين من أخذ مباشرة عن رسول الله ﷺ وبين غيره، لما في المعرفة بذلك والإلمام به من أهميّة بالنّسبة إلى طالب علم الحديث رواية ودراية، قال أبو عمر: وأقلّ ما في ذلك معرفة المُرسَل من المُسنَد، وهو علم جسيم لا يُعذر أحد يُنسب إلى علم لحديث بجهله»[1].

كلّ ذلك من أجل مزيد التّعريف بالصّحابة الكرام، وشحذ الهمم على الإقتداء بهم كما نصّ على ذلك «فواجب الوقوف على أسمائهم، والبحث عن سيرتهم، وأحوالهم، ليُهتدى بهديهم، فهم خير من سلك سبيله، واقتدي به»[2]، مع اجتناب التّطويل، قال أبو عمر: وقد جمع قومٌ من العلماء في ذلك كُتُبًا صنّفوها، ونظرتُ إلى كثير بما صنّفوه في ذلك، وتأمّلتُ ما ألّفوه، فرأيتهم ـ رحمة الله عليهم ـ قد طوّلوا في بعض ذلك، وأكثرُوا من تكرار الرّفع في الأنساب، ومخارج الرّوايات، وهذا ـ وإن كان له وجه ـ فهو تطويل على من أحبّ عِلْم ما يُعتمد عليه من أسمائهم ومعرفتهم[3]، آملا رَحِمَهُ ٱللَّهُ من وراء كلّ هذا الجهد تحقيق الإضافة النّوعيّة، والإشعاع المنشود، والفوز بمزيد من الأجر والثّواب، قال أبو عمر: وأرجو أن يكون كتابي هذا أكبر كُتبهم تَسمِية، وأعظمها فائدة...رجاء ثواب الله ﷻ، وإلى الله أرغب في سلامة النّيّة، وحسن العون على ما يرضاه فإن ذلك به لا شريك له»[4].

وللعلم فإنّ ابن عبد البَر قد قدّم لكتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» بكتاب «الإنباه على قبائل الرّواة» الذي أتى فيه على أنساب القبائل من الرّواة من قريش

---

(1) الاستيعاب (1/ 19).

(2) نفسه (1/ 19).

(3) نفسه (1/ 19).

(4) نفسه (1/ 20).

والأنصار وسائر العرب، جاعلا منه مَدخلا لكتاب «الاستيعاب» درءا للرّفع في الأنساب، وسبيلا للاختصار والتّقريب، قال أبو عمر: أما بعد فإني ذكرتُ في كتابي هذا أمّهات القبائل التي روت عن رسول الله ﷺ، وقرّبت ذلك، واختصرته، وبيّنته، وجعلته دليلا على أصول الأنساب، ومَدْخلا إلى كتابي في الصّحابة، ليكون عَوْنا للنّاظرين فيه، ومنبِّها على ما يحتاج إليه من معرفة الأنساب، فإنّه عِلْم لا يليق جهله بذوي الهمم والآداب لما فيه من صلة الأرحام، والوقوف على ما ندب إليه النبيﷺ[1].

ولكي يتحقّق الانتفاع بـ «الاستيعاب» أكثر، فقد أسرع ابن عبد البر حال الانتهاء من تصنيفه إلى تعزيزه بكتاب آخر عَنْون له بـ «الاستغناء في أسماء المشهورين من حملة العلم بالكُنى»[2]، مضمنا إيّاه من عُرف من الصّحابة بكُنْيَته، واشتهر بها، ولم يُوقف على اسمه، أو عُرف اسمه على اختلاف فيه، مكتفيا فيه بذكر أسماء المعروفين منهم، مجرّدا إيّاه من كلّ ما تعلّق بهم من أخبار، لأنّه قد أتى على كلّ ذلك في «الاستيعاب»، كما استعرض فيه التّابعين، ومَن بعدهم ممّن اشتهر بكُنْيَته أو عُرف بكُنْيَته ممن وُقف له على اسم، ولكنّه لم يُعرف به، وإنّما عُرف، واشتهر بكُنْيَته، مختتما إياه بذكر المشهورين بالكُنَى ممّن لم يُذكر له اسم سوى كُنْيَتَه. وهو ما يؤكّد مجدّدا تمام إلمام ابن عبد البّر بعلم الرّجال من الصّحابة والتّابعين، وحرصه على جعل مصنّفاته في متناول أكثر عدد ممكن من القرّاء.

---

(1) القصد والأمم في التّعريف بأصول أنساب العرب والعجم(ص 34).

(2) الاستغناء في أسماء المشهورين من حملة العلم بالكُنَى، تحقيق عبد الله مرحول السّوالمة.

ج ـ الخطّة المعتمدة في «الاستيعاب» :

لم يفت ابن عبد البَـر في مقدّمة كتابه إبراز كيفيّة ترتيب مـادّته حيث قال «ونبدأ بذكر رسول الله ﷺ، ونقتصر من خبره، وسيرته على النّكت التي يجب الوقـوف عليهـا، ولا يليق بذي علم جهلها، وتحسن المذاكرة بها لتتمّ الفائدة للعالِمِ الرّاغِب، والمتعلّم الطّالب في التّعرّف بالمصحوب والصّاحب، مـختصرا ذلك أيضا، مُوعبـا، مُغنيـا، عمـا سـواه كافيا، ثمّ نُتبعه ذِكْر الصّحابة بابا بابا على حُــروف المعجم على مـا شرطنا مـن التّقـصي والاستيعاب، مع الاختصار وترك التّطويل والإكثـار»[1]، مـذكّرا بنوعيـة ومنزلـة مـا اعتمده من مـادّة علميّة، قال أبو عمر: واعتمدتُ في هذا الكتاب على الأقوال المشهورة عند أهل العلم بالسّير، وأهل العلم بالأثر والأنساب، وعـلى التّـواريخ المعروفـة التـي عوّل عليها العُلمـاء في معرفة أيام الإسلام وسِير أهله»[2]، معرّفا وبشكل موجز بطُرق روايته عمن أخذ عنهم، أو روى لهم[3]، منبّها إلى تعـدّد مـصادره وتنوّعهـا «وفي كتـابي هذا من غير هذه الكُتب من منثور الرّوايات، والفوائد، والمعلّقات عن الـشّيوخ مـا لا يخفى على متأمّل ذي عناية، والحمد لله»[4].

۞ من ملامح منهج ابن عبد البَر في «الاستيعاب» :

المنْهج لـغـة مشتّق من نَهَجَ، والنّهْجُ هـو الطّريـق والـسّبيل، ونهـج الأمـر أوْضَـحه، والجمع نُهُجٌ ومناهِج، وتبعا لذلك فإنّ المـنهج في اللّغـة هـو الطّريـق الواضـح المتّبـع، والخطّة المرسومة للسّير عليها.

---

(1) الاستيعاب (1/ 25).
(2) نفسه (1/ 20).
(3) نفسه (1/ 20 ـ 24).
(4) نفسه (1/ 24).

أما اصطلاحا فقد عرّفه البعض بأنّه «الطّريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامّة، تُعين على سير العقل، وتحدّد عملياته الفكريّة، حتى يصل إلى نتيجة معلومة»[1]، في حين يرى آخرون بأنّه «فنّ التنّظيم السّليم لسلسلة من الأفكار من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون جاهلين بها، أو البرهنة للآخرين حين نكون عارفين بها»[2].

والمتأمل في كتاب «الاستيعاب» يلاحظ أنّ صاحبه قد أشار منذ البداية إلى الكيفيّة التي سينظم وفقها مادّته، وكيفيّة عرضها، والغاية المرجوّة منها، وما سيحكم كلّ ذلك من ضوابط، وهو ما سنحاول تلمّسه من خلال جولة قصيرة في ثنايا «الاستيعاب في معرفة الأصحاب».

1 ـ تراجم «الاستيعاب»:

ذكر ابن عبد البَر في ديوانه ثلاثة آلاف وخمسمائة ترجمة، وفقا لما ذكره ابن فتحون الأندلسي (ت 517هـ/ 1123م)[3]، مسمّيا إياه «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» معتقدا «أنّه استوعب ما في كُتب مَنْ قبله»[4]. وقد رتّبها على حروف المعجم وفق نظام أهل المغرب والأندلس في ترتيب الحروف الهجائيّة[5]، إلا أنّ علي البجاوي، محقّق «الاستيعاب»[6] أعاد ترتيبها على حروف المُعجم وفق نظام أهل المشرق بقصد تيسير الاستفادة منه أكثر، وهو التّرتيب المعتمد في عملنا هذا.

(1) مناهج البحث العلمي (ص5).
(2) منهجيّة البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، سلسلة «دعوة الحقّ»، ع183، س 16.
(3) الرّسالة المُستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرّفة (ص 203).
(4) الإصابة في تمييز الصّحابة (1/ 4).
(5) تُرتّب حروف المعجم عند أهل الأندلس والمغرب وفق الآتي: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ي.
(6) مكتبة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، (د.ط.ت).

جاءت تراجم «الاستيعاب» في أحجام مختلفة، متفاوتة طولا وقصرا، حيث كان الطويل منها يغطي المشاهير من الصّحابة الكرام مثل أبي بكر[1]، وعمر[2]، وعثمان[3]، وعلي[4]، والحسن[5]، والحسين[6]، وأم المؤمنين عائشة[7] ـ رضوان الله عنهم ـ.

بل هناك من الصّحابة الكرام من ترجم لهم ابن عبد البَر في مناسبتين كما هو الحال بالنسبة إلى الصّحابي الجليل جنُدَب بن جنَادة، أبو ذرّ الغفاري[8]، مع اختلاف في المضمون، قال أبو عمر في كتاب الكُنى من كتاب الاستيعاب أثناء ترجمته لأبي ذر رضي الله عنه ثانية «وقد تقدّم في باب جُندب من خبره ما لم يقع هنا»[9].

ويبدو أنّ السّبب في ذلك، فضلا عن المكانة العالية التي كان يتمتّع بها أصحاب تلك التّراجم، أنّ ابن عبد البر سلك مسلكا جديدا في ديوانه حيث لم يكتف كسابقيه بإيراد نسب المترجم له، والاكتفاء بذكر نماذج من مروياته عن رسول الله ﷺ فحسب، بل تجاوز ذلك إلى استعراض كلّ ما يمكن أن يبرز منزلته، ويشجّع على مزيد الاقتداء به.

يتجلى ذلك من خلال بيان ابن عبد البر لكيفيّة إسلام المترجم له، وما قدّمه من تضحيات في سبيل نُصرة الإسلام، مذكّرا بما وقع فيه من زلاّت دون الانتقاص من

---

(1) انظر: الاستيعاب (3/ 963 ـ 978).
(2) نفسه (4/ 1144 ـ 1159).
(3) نفسه (3/ 1037 ـ 1053).
(4) نفسه (3/ 1089 ـ 1133).
(5) نفسه (1/ 383 ـ 392).
(6) نفسه (1/ 392 ـ 399).
(7) نفسه (4/ 1881 ـ 1885).
(8) نفسه (1/ 252 ـ 256).
(9) نفسه (4/ 1652 ـ 1656).

منزلة أحد أو التشكيك في عدالته. يقول ابن الأثير الجزري (ت630هـ/ 1232م): ورأيت ابن مندة وأبا نعيم قد أكثرا من الأحاديث والكلام عليها، وذكرا عللها، ولم يكثرا من ذكر نسب الشّخص، ولا ذكر شيء من أخباره وأحواله، وما يُعرف به. ورأيت أبا عمر قد استقصى ذكر الأنساب، وأحوال الشّخص، ومناقِبه، وكلّ ما يُعرف به، حتى أنّه يقول: هو ابن أخي فلان، وابن عم فلان، وصاحب الحادثة الفلانيّة، وكأن هذا هو المطلوب من التّعريف، أما ذكر الأحاديث وعللها وطرقها فهو بكتب الحديث أشبه»[1].

إلا أنّ ابن عبد البَر وكما توسّع في بعض التّراجم فقد كان جدّ مختصر في بعضها الآخر كما هو الحال بالنسبة إلى أُسَيْد بن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه حيث قال بشأنه: «شهد بدرا، وشهد صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[2]، وحيّان بن الأبجر رضي الله عنه له صُحبة، يُعدّ في الكُوفيين، شهد مع علي صفين»[3]، مكتفيا بالنسبة إلى آخرين بأقلّ من ذلك بكثير، قال أبو عمر: أشيم الضِّبابي رضي الله عنه مات في حياة النبي ﷺ»[4]، وثابت بن واثلة رضي الله عنه قتل يوم خيبر شهيدا، رحمه الله»[5].

والأرجح أنّ ذلك يعود إلى شُحّ الأخبار بسبب عدم شُهرة المترجَم له، وقلّة مشاركته، لا تقصيرا من ابن عبد البر كما قد يتوهّم البعض، يضاف إلى ذلك التزامه بالإحالة إلى بقية كتبه وفي مقدّمتها كتاب الكُنى من «الاستيعاب» بالنسبة إلى من غلبت

(1) أُسْد الغابة في معرفة الصّحابة (1/ 357).
(2) الاستيعاب (1/ 94).
(3) نفسه (1/ 317).
(4) نفسه (1/ 138).
(5) نفسه (1/ 207).

عليهم كُناهم، قال أبو عمر أثناء ترجمته لحبّة بن بعكك، أبو السّنابل القُرَشي العامري ﷺ: «وهو مشهور بكنيته.... وقد ذكرناه في الكُنى بأتم من ذكرنا له ههنا»[1]، وقال في ترجمته لحذيفة بن أسيد، أبو سُريحة الغِفاري ﷺ «وقد ذكرناه في الكُنى بأكثر من ذكره هنا لأنّه ممّن غلبت عليه كُنْيَتُه»[2].

وبقطع النّظر عن طول التّراجم وقِصرها فإنّ ابن عبد البر لم يكن مجرّد ناقل لما سمعه من شيوخه أو عثر عنه في مصنّفات السّابقين، بل كان على امتداد صفحات «الاستيعاب» مستعينا بكلّ ما يمكن أن يُساعده على بلوغ الحقيقة حيث كان يقف موقف النّاقد من كلّ ما يتلقاه، يستخلص النتائج، معبّرا عن مواقفه بكلّ جرأة ووضوح، مستدّلا لما اختاره بأقوى ما توفّر لديه من براهين.

ومن محاسن «الاستيعاب» أنّ صاحبه غالبا ما كان يختتم التّراجم الواردة تحت كلّ حرف هجائي بباب خاص بالأسماء والكنى والألقاب التي لا يوجد في الرواة من يحملها إلا واحد فقط، وهو نوع مليحٌ عزيزٌ، فائدته حصر هذه النوعيّة من الأسماء إذ بمجرّد ذكرها يَعرف الباحث الرّاوي المقصود، لعدم وجود من يشاركه في اسمه أو كُنيته، أو لقبه، وضبط ما تدعو إليه الحاجة مخافة التّصحيف والتّحريف[3].

2 ـ إثبات الصّحبة:

انطلاقا ممـا توصّل إليه السّابقون، وبالاعتماد على ثراء مخزونه في علم الرّحال، وما اكتسبه من ملكة نقديّة فقد تصدّر ابن عبد البَر إلى إثبات الصّحبة لعدد ممّن ترجم لهم، ويمكن تقسيمهم إلى مجموعتين:

---

(1) الاستيعاب (1/ 318).

(2) نفسه (1/ 336).

(3) انظر: منهج النقد في علوم الحديث (ص 179).

◄ **المجموعة الأولى**: المغمورون كما هو الحال بالنّسبة إلى الأسود بن عوف حيث أكّد بأنّ له صُحبة[1]، وكذلك إياس بن عبْد المُزَني الذي أكّد أبو عمر أنّه يعدّ في الحجازيين، وقد روى عن النبي ﷺ: لا تبيعوا الماء[2]، إلا أنّ عبد البر لا يحفظ له غير هذا الحديث[3]. ولتأكيد موقفه كثيرا ما يعمد ابن عبد البر إلى إثبات الصُّحبة لأبي المترجم له كما هو الحال بالنسبة إلى بشير بن عَقْربة الجُهني، قال أبو عمر: له صُحبة، ولأبيه عَقْربة صُحبة، أستشهد أبوه مع النبي ﷺ[4]، وحَبّان ـ بفتح الحاء ـ ابن منقذ بن عمرو الأنصاري المازني من بني مازن بن النجّار، له صُحبة... مات في خلافة عثمان رضي الله عنه، له ولأبيه منقذ صُحبة[5]، مشيرا بالمناسبة إلى من تشرّف من هذا المجموعة بالرّواية عنه ﷺ إلى جانب صُحبته له ﷺ كما هو الحال بالنّسبة إلى جَبْر بن عَتيك، قال أبوعمر: له صُحبة ورواية[6]، وحابس بن دُغُنَّة الكلبي له رواية وصُحبة[7]، مُنبّها بالمناسبة إلى من لم يتشرّفوا بالرّواية عنه ﷺ بالرّغم من صُحبتهم له ﷺ كما هو الحال بالنّسبة إلى بشير بن جابر بن غراب، قال أبو عمر: له صُحبة، وليس له رواية»[8]. وهي إشارات لطيفة من ابن عبد البرّ، تكتسي أهمية كبيرة في إثبات اتصال الحديث من عدمه.

---

(1) الاستيعاب (1/ 87).

(2) أخرجه الدارمي، السنن، كتاب البيوع، باب النهي عن بيع الماء، ح 2498.

(3) الاستيعاب (1/ 127).

(4) نفسه (1/ 175).

(5) نفسه (1/ 318).

(6) نفسه (1/ 231).

(7) نفسه (1/ 279).

(8) نفسه (1/ 177).

< **المجموعة الثانية**: من توقّف بعض المتقدّمين في إثبات صُحبتهم لرسول الله ﷺ كما هو الحال بالنّسبة إلى حكيم بن معاوية النميري، قال أبو عمر: قال البخاري في صُحبته نظر، قال أبوعمر معقّبا: كلّ من جمع في الصّحابة ذكَره فيهم، وله أحاديث منها أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا شُؤْم، وقد يكون اليُمْن في الدّار، والمرأة، والفرس[1]. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: حكيم بن مُعاوية النميري: له صُحبة، روى عنه ابن أخيه معاوية بن حكيم، وقتادة من رواية سعيد بن بشير عنه[2]، والحكم بن سُفيان الثقفي...يقال إنّه لم يسمع من النبي ﷺ، وسماعه منه عندي صحيح لأنّه نقله الثقات، منهم الثوري، ولم يخالفه مَنْ هو في الحفظ والإتقان مثله[3].

لقد كان ابن عبد البر كثير الاعتماد على نفسه فيما ذهب إليه، إلاّ أنّ ذلك لا ينفي أحيانا استنجاده بآخرين، مثال ذلك قوله: قال الدّارقطني: جبل بن جوّال الثعلبي له صُحبة[4]، وجبارة بن زُرارة البلوي له صُحبة، وليست له رواية، هكذا قال علي بن عمر الدّارقطني: جبارة بكسر الجيم[5]، وبشر بن عاصم الثقفي: ذكر ابن أبي حاتم قال: بشر ابن عاصم له صُحبة، روى عنه أبو وائل شقيق بن سلمة، سمعت أبي يقول ذلك[6].

---

(1) أخرجه الترمذي، السنن، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشؤم، ح 2750.
(2) الاستيعاب(1/ 364).
(3) نفسه (1/ 361).
(4) نفسه (1/ 271).
(5) نفسه (1/ 278).
(6) نفسه (1/ 172).

غير أنّ كلّ ذلك لم يمنعه من التمسّك برأيه، والدّفاع عنه، كما فعل في ترجمته لأيمن ابن عبيد الحبشي، قال أبو عمر: قال الدّارقطني: قد روى أيمن بن خريم عن النّبي ﷺ وأما أنا فما وجدت له رواية إلا عن أبيه وعمّه[1].

3ـ **نفي الصّحبة:**

بقدر ما أثبت ابن عبد البر الصُّحبة للبعض فقد نفاها عن البعض الآخر كما هو الحال بالنسبة لأسامة بن خرَيم، قال أبو عمر: لا تصِحُّ له صُحبة[2]، وأما أبو رُهم السمعي، فلا يصح ذكره في الصّحابة لأنه لم يدرك النبي ﷺ، ولكنّه من كبار التّابعين[3]، وحميد بن مَنْهب بن حارثة الطائي: لا تَصِحُّ له صُحبة، وإنما سماعه من علي رضي الله عنه، وعثمان رضي الله عنه، لا أعرف له غير ذلك، وقد ذكره في الصّحابة قومٌ، ولا يصِحُّ، والله أعلم[4]، موضحا ما قد يترتّب عن ذلك، شاهد ذلك ما جاء في ترجمته لأمية بن خالد، قال أبو عمر: روى عن النبي ﷺ أنه كان يستفتحُ بصعاليك المهاجرين، لا تصحّ له عندي صُحْبتَه، فالحديث مُرْسَل»[5].

ولئن سعى ابن عبد البَر إلى تعزيز مواقفه بما توصّل إليه السّابقون كما هو الحال بالنّسبة إلى حوط بن عبد العزّى، قال أبو عمر: قال أبو حاتم الرازي: لا تصِحُّ له صُحْبة[6]، فإنّ فصله في بعض المسائل قد غاب أحيانا، كما هو الحال بالنسبة إلى أسلم ابن بُجْرة الأنصاري، قال أبو عمر: لا يصِحُّ عندي نسب أسلم بن بُجْرة هذا،

(1) الاستيعاب (1/ 130).
(2) نفسه (1/ 78).
(3) نفسه (4/ 1659).
(4) نفسه (1/ 378)، (4/ 1688).
(5) نفسه (1/ 107).
(6) نفسه (1/ 407).

وفي صُحبته نظر[1]، علما أنّ جهود ابن عبد البر لم تتوقف عند هذا الحدّ بل تجاوزته إلى البحث عن مدى تحقّق إسلام المترجم له، كما هو الحال بالنسبة إلى بُجير بن أُوس ابن حارثة بن لام الطائي، حيث ذكر أنّ في إسلامه نظر[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ ابن عبد البر بقدر ما استعان بآراء السّابقين فإنّه كان في مناسبات أخرى من أوائل الرّافضين لها بالرّغم ما لأصحابها من مكانة علميّة، قال أبو عمر «حكيم، أبو معاوية بن حكيم، ذكره ابن أبي خيثمة في الصّحابة، وهو عندي غلط، وخطأ بيّن، ولا يُعرف هذا الرّجل في الصّحابة، ولم يذكره أحد غيره فيما علمت، والحديث الذي ذكره له حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه، وجدّه معاوية ابن حيدة »[3] و «حارثة بن عدّي بن أمية بن الضبيب، ذكره بعضهم في الصّحابة، وهو مجهول لا يُعرف، وقد ذكره البُخاري وأبو حاتم»[4].

لقد حرص ابن عبد البر، كما مرّ بنا، على الاستدلال بأقوى البراهين لما وقع عليه اختياره، ولذلك اشتد استغرابه مما وقعت فيه بعض المرجعيات من أخطاء رغم وضوح الدّليل، قال أبو عمر معلّقا: ذكرنا الأحنف بن قيْس في كتابنا هذا على شرطنا أن نذكر كلّ من كان مُسْلما على عهد رسول الله ﷺ في حياته، ولم نذكر أكثم بن صيفى لأنّه لم يصح إسلامُه في حياة رسول الله ﷺ، وقد ذكره أبو علي بن السكن في كتاب الصّحابة فلم يصنَعْ شيئا، والحديث الذي ذكره له في ذلك، هو أن قال: لما بلغ أكثَمَ بن صيفى مخرجُ رسول الله ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن

---

(1) الاستيعاب (1/ 86).

(2) نفسه (1/ 148).

(3) نفسه (1/ 364).

(4) نفسه (1/ 310).

يدعوه.....الحديث، قال أبو عمر: وليس في هذا الخبر شيء يدلُّ على إسلامه، بل فيه بيان واضح أنّه إذ أتاه الرّجلان اللذان بعثهما إلى النبي ﷺ، وأخبراه بما قال، لم يلبث أن مات، ومثل هذا لا يجوز إدخاله في الصّحابة وبالله التوفيق[1].

4- تصويب ما لحق أسماء المترجم لهم من تصحيف أو تحريف:

يراد بالتّصحيف لغة تغيير اللفظ حتى يتغيّر المعنى المراد، وأصله الخطأ. وهو في اصطلاح المحدّثين «تغيير في نقط الحروف أو حركاتها مع بقاء صورة الخط»[2]، أما التّحريف فيراد به «العدول بالشيء عن جهته، وحرّف الكلام تحريفا عدل به عن جهته، وهو قد يكون بالزّيادة فيه، والنّقص منه، وقد يكون بتبديل بعض كلماته، وقد يكون بجعله على غير المراد منه، فالتّحريف أعم من التّصحيف»[3]، هذا وكما يقع التّصحيف في المتن فقد يقع في السّند، وهذا الأخير من أشدّ أنواع التّصحيف كما نبّه إلى ذلك علي بن المديني.

ومن ينظر في «الاستيعاب» يلاحظ أنّ ابن عبد البر قد أولى هذه المسألة كبير عنايته حيث قام بتصويب الكثير مما لحق أسماء المترجم لهم من تصحيف أو تحريف، مشيرا إلى ما وقع من اختلاف بين العلماء في ذلك[4]، وهو ما يؤكّد تضلّعه باللغة، ومعرفته باختلاف اللهجات والرّوايات، قال أبو عمر بعد أن ترجم لأقرم بن زيد الخزاعي، وتأكيده بأنّ له صُحبة ورواية: وقال بعضهم أرقم الخزاعي، ولا يصِحُّ، والصّواب أقرم إنْ شاء الله[5]، وأبو الأسود سنْدر، ويقال عبد الله بن سنْدر، ولا يصحُّ،

---

(1) الاستيعاب (1/ 145 ـ 147)، (4/ 1730).

(2) تصحيفات المحدّثين (1/ 39).

(3) نفسه (1/ 39).

(4) انظر: الاستيعاب (4/ 1644).

(5) نفسه (1/ 140).

وإنّما هو ابن سنْدر، له صُحبة، وحديثه عند أهل مصر مرفوعا[1]، وقال معلّقا على ما أوره البخاري بشأن أبي فروة حُدير السلمي: ووقع في كتاب البخاري في هذا الخبر عن بشير مولى معاوية: سمع عشرة من أصحاب النبي ﷺ أحدهم فروة في رؤية الهلال، وهذا خطأ وتصحيف ليس فيه إشكال، والصّواب ما كتبناه، وبالله توفيقنا[2]، مكتفيا في أكثر من مناسبة بذكر ما توصّل إليه غيره كما هو الحال في ترجمته لأبي سويد، قال أبو عمر: وقال أبو الحسن علي بن عمر الدّارقطني في المؤتلف والمختلف له: أبو سَويّة الأنصاري، روى عن النبي ﷺ، ومن قال أبو سويد فقد صحّف[3]، وقال في ترجمته لبهيّة بنت بُسر المعروفة بالصماء: ذكر الدّارقطني أن الصماء بنت بسر أخت عبد الله ابن بسر، اسمها بهيمة بزيادة ميم[4]، مذكّرا بما وقع فيه السّابقون من سهو، مثال ذلك ما ذكره أثناء ترجمته للحارث بن ابن البَرْصَاء، قال أبو عمر: قال العقيلي: الحارث بن مالك بن البرصاء القرشي العامري، وهذا وهم من العقيلي، ومن كلّ من قاله، والصّحيح ما ذكرناه[5]. هذا ومن المعلوم أنّ التّصحيف والتّحريف لم يقف عند الأفراد بل وكذلك الجماعات كما نصّ على ذلك ابن عبد البر، متوليا تصويب الخطأ[6].

إلا أنّ هذه الصّرامة في التّوثيق قد غابت عن ابن عبد البر أحيانا باعتماده صيغ التّمريض، قال أبو عمر: حُصَين، ويُقال حِصّن، والأكثر حُصين بن ربيعة

---

(1) الاستيعاب (4/ 1597).

(2) نفسه (4/ 1728).

(3) نفسه (4/ 1686).

(4) نفسه (4/ 1797).

(5) أي الحارث بن مالك بن قيس بن عوذ بن بني ليث بن بكر، الاستيعاب(1/ 290).

(6) كقوله مثلا «وقد غلطت طائفة ألفت في الصّحابة في.... وهذا غلط فاحش»، الاستيعاب (4/ 1622، 1626).

الأحمسي، أبو أرطأة. يقال حُصين بن ربيعة بن عامر بن الأزور... وقد قيل في إسم أبي أرطأة هذا ربيعة بن حُصين، والصّواب حُصين بن ربيعة، والله أعلم[1]، وأذينة العبدي، قال أبو عمر: اختلف فيه، فقيل أذينة بن مسلم العبدي من بني عبد القيس من ربيعة، وقيل أذينة بن الحارث بن يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة، والأول أصحُّ[2].

وبالرّغم من عدم التزام ابن عبد البر أحيانا بتوثيق مادّته فإنّ جمعها من بطون المصنّفات، وما يستوجبه الوصول إلى الحقيقة من مقارنة، وتحليل، وترجيح، واستدلال، كان من أهم المعالم المميّزة لمنهجه على امتداد ديوانه، مثال ذلك جاء في ترجمته للبَرَاء بن عازب بن حارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث ابن الخزرج الأنصاري الحارثي الخزرجي، قال أبو عمر: يُكنى أبا عُمارة، وقيل أبا الطُّفَيْل، وقيل يُكنى أبا عمرو، وقيل أبو عمر، والأشهر أبو عمارة، وهو أصَحُّ إن شاء الله تعالى[3]، ومثاله أيضا ما جاء في ترجمته لحذيفة بن اليمان، قال أبو عمر: ومات حذيفة سنة ست وثلاثين بعد قتل عثمان في أول خلافة علي، وقيل: توفي سنة خمس وثلاثين، والأول أصَحُّ، وكان موته بعد أن أتى نعي عثمان إلى الكوفة، ولم يُدرك الجمل[4]. ولعل أكثر مسألة استوقفت ابن عبد البر طويلا دون أن يخرج من الخوض فيها بنتيجة واضحة كانت الاختلاف الحاصل في اسم أبي هريرة رضي الله عنه في الجاهلية والإسلام[5].

(1) الاستيعاب(1/ 354).

(2) نفسه (1/ 136).

(3) نفسه (1/ 155).

(4) نفسه (1/ 335).

(5) نفسه (4/ 1768 ـ 1771).

5 ـ التّعريف بمن اشتهروا بكُناهم من الصَّحابة والتَّابعين: احتلّ هذا المبحث عناية خاصّة من لَدُن ابن عبد البر حيث أفرده بكتاب مستقلٍّ ضمن «الاستيعاب»، مصدّرا إيّاه بمقدّمة جليلة، كان من بين ما جاء فيها «هذا كتاب ذكرتُ فيه من عُرف من الصَّحابة الكرام بكُنْيته، واشتهر بها، ولم يُوقف على اسمه، أو وُقف على اسمه، ولكن غَلبت عليه كُنيته، فلم يُعرف إلا بكُنيَته، ممن اختُلف في اسمه، أو اتُّفق عليه. وجعلتُه كتابا مُفردا، وصلتُ به كتابي في الصَّحابة، إذ هو جزءٌ منه، وآخر أبوابه، وخاتمة فائدته، وجريتُ فيه على شرط الإيجاز والاختصار، ومُجانبة التّطويل والتّكرار، على حسب ما شرطنا في سائر الكتاب، والله عزّ وجلّ الموفّق للصّواب، وجعلتُه أيضا على حروف المعجم ليكون أقرب على من أراد حفظه وعلمه»[1].

ولئن انصبَّ اهتمام ابن عبد البر على التّعريف بمن اشتهروا بكُناهم فإنّ ذلك لم يمنعه من تصويب بعض الأخطاء، ولو كان مصدرها كبار المحدّثين، مع شيء من التّهكم غير المقصود لأن ذلك ليس من أخلاق ابن عبد البر، شاهد ذلك: وقال يحي بن معين: اسم أبي أحمد بن جحش عبد الله بن جحش بن قيس، فلم يصنع شيئا، والصّحيح ما ذكرناه عبد بن جحش[2]، وهو نفس الموقف الذي اتخذه من علي بن المديني[3] وغيره، محتجًّا لرأيه بما رآه مناسبا.

6ـ الحكم على مرويات المترجم لهم تصحيحا وتضعيفا: لقد تجشّم ابن عبد البر على امتداد ديوانه التّذكير بنماذج من مرويات الكثير ممن ترجم لهم، إلا أنّ اهتمامه انصبّ أكثر على فريقين:

---

(1) الاستيعاب (4/ 1591).

(2) نفسه (4/ 1593).

(3) نفسه (4/ 1704).

أ ـ التعريف بمرويات المقّلين من الرّواية:

مثال ذلك حبيش بن خالد بن ربيعة، يكنى أبا صخر، وهو صاحب حديث أمّ معبد الخزاعيّة، قال أبو عمر: لا أعلم له حديثا غيره[1]، والحارث بن عمرو السهمي، ويقال الباهلي له حديث واحد فيه طول[2]، مذكّرا في أكثر من مناسبة بمن روى عن المترجم له، قال أبو عمر: الحكم بن حزن الكلْفي له حديث واحد، ليس له غيره، رواه عنه زُريق الثقفي الطائفي[3]، وحذْيم بن عمرو السّعدي التّميمي، روى حديثا واحدا، روى عنه زياد بن حذيم، ذكره أبو حاتم الرازي[4]، ورجاء الغنوية، امرأة من الصّحابة سكنت البصرة، ولها حديث واحد، روى عنها محمد بن سيرين[5]، وجُرموز الهُجيمي له حديث واحد، مخرجه عن أهل البصرة[6].

هذا وقد يسترسل ابن عبد البر في التفصيل أحيانا وفق ما سنّه من شروط، شاهد ذلك إيراده لمرويات أبي أمامة بن ثعلبة الحارثي الأنصاري، قال أبو عمر: له عن النبيﷺ ثلاثة أحاديث: أحدها من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه[7]، والثاني البذاذة من الإيمان[8]، والثالث أنّ النبي ﷺ صلّى على أمّه[9] بعد أن دُفنت[10]، أما أبو سعيد ابن المعلى فلا يُعرف في الصّحابة إلا بحديثين، وذكرهما[11].

---

(1) الاستيعاب(1/ 406).
(2) نفسه (1/ 294).
(3) نفسه (1/ 361).
(4) نفسه (1/ 336).
(5) نفسه (4/ 1838).
(6) نفسه (1/ 274).
(7) أخرجه الدارمي، السنن، كتاب البيوع، باب فيمن قطع مال امرئ مسلم بيمينه، ح 2490.
(8) أخرجه أحمد، المسند، باقي مسند الأنصار، ح 21289.
(9) إي أم أبي أمامة بن ثعلبة.
(10) الاستيعاب (4/ 1601)، و الحديث على ما يبدو أخرجه النسائي من طريق آخر، السّنن، كتاب الجنائز، باب الصّلاة على الجنازة بالليل، ح 1943.
(11) الاستيعاب (4/ 1670 ـ 1671).

ب ـ الحكم على الحديث تصحيحا وتضعيفا:

لم يكتف ابن عبد البر بالكشف العددي عن مرويات المترجم لهم، بل كثيرا مـا كـان يتصدّر لبيان درجة بعض تلك المرويات من حيث الصّحة والضَّعف وذلك من خلال:

❁ نقد ابن عبد البر للأسانيد:

لا عجب أن نجد للنّقد الخارجي للحديث حضورا في «الاستيعاب» وصاحبه كان يلقّب في زمانه بـ «بُخاري المغرب» لمعرفته الواسعة والدّقيقة بعلوم الحديث رواية ودراية، ويكفيه فخرا في ذلك تصنيفه لكتاب «التّمهيد» الذي كثيرا ما أحال إليه في «الاستيعاب»[1].

لقد بذل ابن عبد البر جهوداً كثيرة في تتبّع الأسانيد كما استعمل للتعبير عن رأيه أكثر من مصطلح مثل «إسناده حسن»[2]، و«ليس هذا الإسناد بالقوي»[3]، و«ليس إسناده بالقائم»[4]، و«في إسناده شيخ مجهول لا يُعرف»[5]، متجشّما التّفصيل الدّقيق في أكثر من مناسبة كما هو الحال عند ترجمته للحارث بن قيس بن عميرَة الأسَدي حيث قال: ليس له إلا حديث واحد، ولم يأت من وجه صحيح[6]، و أبو شيخ المحاربي، له حديث واحد عند أهل الكوفة، وليس إسناده بشيء، ولايصحّ[7]، أما حُفَيْنَة النهدي فإنّ حديثه عند أبي بكر الدّهري عن الثّوري، لم يرو عنه غيره، ولا يحتجُّ

(1) الاستيعاب(4/ 1601، 1703).
(2) نفسه (1/ 170).
(3) نفسه (1/ 187).
(4) نفسه (1/ 273).
(5) نفسه (1/ 170).
(6) نفسه (1/ 300).
(7) نفسه (1/ 1691).

به لضَعْف الدّهري[1]، وكذلك الحال بالنسبة إلى حنْطب بن الحارث بن عبيد بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، فهو ولئن كان من مُسْلِمة الفتح فإن له حديثا واحدا بإسناد واحد، وهو إسناد ضعيف بسبب وجود المغيرة بن عبد الرحمن، لأن المغيرة ابن عبد الرحمن ضعيف. ودرءا لكل لَبْس، يؤكّد ابن عبد البر أنّ المراد بعبد الرحمن ابن المغيرة إنما هو الحزامي، وليس المخزومي الفقيه، صاحب الرأي، فذلك ثقةٌ في الحديث حسنُ الرأْي[2]، أما حديث أسلم بن بُجرة الأنصاري في بني قريضة أن رسول الله ﷺ ضرب عُنقَ من أنبت الشَّعْر منهم، ومن لم ينبت جعله في غنائم المسلمين، فإسناده ضعيف، لأنّه يدور على إسحاق بن أبي فروة، كما أن نسب أسلم بن بُجْرة غير صحيح، بل في صحبته نظر[3]، وإبراهيم الطّائفي، والد عطاء بن إبراهيم، روى عنه ابنه عطاء عن النبي ﷺ... ولم يرو عنه غير ابنه عطاء، وإسنادُ حديثه ليس بالقائم، ولا مما يُحتجُّ به، ولا يصِحُّ عندي ذكره في الصّحابة، وحديثه مُرْسَل عندي، والله أعلم[4]، وهي إشارات لطيفة، و في منتهى الأهميّة حديثيا تكشف عن مدى دراية ابن عبد البر بفقه الحديث سندا و متنا.

لقد حرص ابن عبد البر في مناسبات متعدّدة على بيان وجه الصّواب دون الاكتفاء بتشخيص الخطأ كما هو الحال في حديث بهز بن حكيم بن معاوية، فبعد أن ذكر الحديث بإسناد ضعيف قال: والصّواب في هذا الحديث ما أخبرنا به يَعيش بن سعيد الورّاق، وعبد الوارث بن سفيان قالا: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال حدثنا أحمد بن محمد البِرْتي القاضي، قال حدثنا أبو معمر المقعَد، قال حدثنا عبد الوارث بن سعيد، قال

---

(1) الاستيعاب(1/ 274 ـ 275).
(2) نفسه (1/ 401).
(3) نفسه (1/ 85 ـ 86).
(4) نفسه (1/ 61)، (4/ 1686 ـ1687).

حدثنا بهز بن حكيم بن معاوية بن حَيدَة القشيري، قال حدثنا أبي عن جدّه، قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسولَ الله ما أتيتك حتى حلفتُ أكثر من عدد الأنامل ـ وطبّق بين كفّيْه إحداهما على الأخرى ـ ألاّ آتيك، ولا آتي دينك، فقد أتيك... الحديث. قال أبوعمر: هذا هو الحديث الصّحيح بالإسناد الثّابت المعروف، وإنما هو لمعاوية بن حَيدة لا لحكيم أبي معاوية، سئل يحي بن معين عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه، فقال: إسنادٌ صحيح، وجدّه معاوية بن حَيدة، قال أبوعمر: ومن دون بهز بن حكيم في هذا الإسناد ثقات، فإنه حديث[1]، مذكّرا أحيانا أخرى بإجماع العلماء فيما يتعلّق ببعض المسائل إيثارا للاختصار.

❁ **نقد ابن عبد البر للمتون:**

وكما سخّر ابن عبد البر جهوده لنقد الأسانيد فإنّه لم يدّخر جَهدا ـ كما مرّ بنا ـ في تحديد موقفه من متون بعض الأحاديث كلّما استدعت الضرورة ذلك، كقوله: هذا حديث صحيح في أن الشّهيد لا يُغسل، وقد تقدّم أنّه لم يُصَل عليه، وثابت بن وديعة روى عنه البرّاء بن عازب حديثه في الضبّ، يختلفون فيه اختلافا كثيرا، وأما حديثه في الحُمر الأهليّة يوم خيْبر فصحيح[2].

إلا أن حالات الاهتمام بالمتن كانت عدديا أقل بكثير من تلك المتعلقة بالسّند، وذلك لقلّة ما أورد ابن عبد البر من متون في «الاستيعاب» مقارنة بالأسانيد، هذا فضلا عن أن الخلل في الأسانيد بطبعه أكثر بكثير منه في المتون. وعموما فليس من الغريب أن يكون مستوى حضور النّقد للحديث سندا ومتنا، والحكم عليه تصحيحا

(1) الاستيعاب (1/ 364ـ 366)، (4/ 1681).
(2) نفسه (1/ 206).

وتضعيفا في هذا المستوى من الشمول والعمق والصراحة في «الاستيعاب» لأن مؤلِفه أقدم على تأليفه بوصفه محدّثا قبل أن يكون مؤرّخا.

7 ـ **الاستشهاد بالشعر:**

باعتبار الشّعر ديوان العرب، وهو إحدى الوسائل التي تم استثمارها في تسجيل الأحداث، والتعريف بالرّموز، وقد كان ابن عبد البر أحد أولئك الذين استرسلوا في الاستشهاد بالشعر لإثبات رأي أو نفيه، مثال ذلك قوله: كان أبو الطفيل[1] شاعرا محسنا، وهو القائل لما بلغ من العُمر عِتِيا:

أيدعونني شيْخا وقد عِشْتُ حِقْبَة   وهنّ من الأزواج نحوي نوازع
وما شاب رأسي من سنين تتابعت   عليّ، ولكن شيّبتْني الوقائع[2]

وكان من بين ما استحضره ابن عبد البر من نظم أبي محجن في الخمر قوله:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة   تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلاة فإنني   أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها[3]

ولعل أكثر من توسّع في إيرد مقاطع طويلة من شعرها كانت الخنساء بنت عمرو بن الشريد، التي أكثر من الثناء عليها، مؤكّدا أنه لم توجد امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها. وكان من بين ما استحضره من شعرها قولها وهي ترثي أحد أبنائها:

أعينيّ جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى

---

(1) عامر بن واثلة الكناني، صحابي جليل، ولد يوم أُحُد، وأدرك من حياة الرّسول ﷺ ثماني سنين.
(2) الاستيعاب (4/ 1697).
(3) نفسه (4/ 1749).

ألا تبكيـــان الجـــريء الجميـــل ألا تبكيـــان الفـــتى الـــسيدا
طـــويل العمـــاد عظـــيم الرمـــا د ســـــاد عـــشيرته أمـــردا[1]

وكأني به يريد بذلك إبراز الحدّ الـذي وصـلت إليـه مـشاركة المرأة في نـشر الـدّعوة المحمديّة، وصدّ العدوان عنها، وفي كتاب النّساء من «الاستيعاب» أكثر من شاهد على ذلك. لقد كان ابن عبد البر يهدف من وراء استرساله في تحلية ديوانه بالشّعر، بالإضافة إلى مـا سبق ذكره، الإشارة وبكلّ لطـف إلى مـا للـشعر مـن أهميّـة في نُـصرة الرِّسـالة المحمديَّة، والتّعريف بالقيم الإسلاميَّة، خير دليل على ذلك استنجاده ﷺ في أكثـر مـن مناسبة بأفضل أصحابه نَظْمـا للـشّعر لتعزيـز مواقفه، مـن ذلـك أمـره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوضع مِنْبر في المسجد لحسّان بن ثابت رضي الله عنه يقـوم عليـه، معرّفـا بالإسـلام، ومنافحـا عنه[2]، ودخوله ﷺ مكّة في عُمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بين يـده يمـشي، وهو يقول:

خَلُّـــوا بـــني الكُفَّـــار عـــن ســـبيله اليـــوم نَـــضرِبْكُم على تنزيلـــــه
ضَرْبـــا يُزيـــل الهَـــامَ عـــن مَقيلـــه ويُـــذهِلُ الخَليـــل عـــن خليلـــه[3]

فقال له عمر رضي الله عنه: يا ابن رواحة بين يـدي رسـول الله، وفي حـرم الله تقـول الـشِّعر، فقال له رسول الله ﷺ: خَلِّ عنه يا عمر فَلَهِي أَسْرَعُ فيهم من نَظْحِ النَّبْلِ[4].

---

(1) الاستيعاب (1/ 1827).
(2) انظر: الترمذي، السنن، كتاب الأدب، باب مـا جاء في إنشاد الشعر.
(3) بحر الرجز.
(4) انظر: الترمذي، السنن، كتاب الأدب، باب مـا جاء في إنشاد الشعر.

❁ الدّفاع عن الصّحابة والتّابعين

كان من بين أهداف ابن عبد البر تبعا لما جاء في مقدّمة «الاستيعاب» مزيد التّعريف بالصّحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتعزيز الاقتداء بهم، ولذلك كان لا بدّ من تصويب ما ورد في حقّ بعضهم من أخطاء، وردّ ما أثير حولهم من شُبهات، وهو ما فعله ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ مع حسّان بن ثابت رضي الله عنه، مكذّبا بالحُجَج القاطعة ما اتُّهم به من جُبن مُفرط، قال أبو عمر: وقال أكثر أهل الأخبار والسّير: إنّ حسّانا من أجبن النّاس، وذكروا من جُبْنه أشياء مُسْتشنَعة أوردوها عن الزّبير أنّه حكاها عنه، كرهتُ ذكرها لنكارتها...وقيل إنما أصابه ذلك الجُبن منذ ضربه صفوان بن المعطَّل بالسّيف[1]. وبناء على ذلك زعموا أنه رضي الله عنه لم يحضر ولو مشهدا واحدا مع رسول الله ﷺ[2]، متّهمين إيّاه بالخوض في الإفك على عائشة رضي الله عنها مما تسبب في تعرّضه للجلد[3].

كما ردّ ابن عبد البر ما زعمه بعضهم في حقّ عثمان بن عفان رضي الله عنه، من أنه تخلّف عن غزوة بَدْر مفضّلا البقاء مع زوجته رقيّة بنت رسول الله ـ رضي الله عنهما ـ، مؤكّدا أنّ تغيّبه رضي الله عنه إنما كان بأمر من رسول الله ﷺ بسبب مرضها رضي الله عنها ـ لا غير[4].

وقال أبو عمر مدافعا عن المهلّب بن أبي صفرة بعد أن عرّف به: المهلّب بن أبي صفرة من التّابعين، له رواية عن النبيﷺ مُرسَلة، وهو ثقة، ليس به بأس. وأما من عابه بالكذب فلا وجه له، لأنّ صاحب الحرب يحتاج إلى المعاريض والحيلة، فمن لم يعرفها

---

(1) الاستيعاب (1/ 348).
(2) نفسه (1/ 348).
(3) نفسه (1/ 347)، (4/ 1884).
(4) نفسه (1/ 1842).

عدّها كذِبا. وكان شجاعا ذا رأي في الحرب، خطيبا، وهو الذي حمى البصرة من الأزارقة الخوارج والصُّفريّة بعد أن أجلى أكثر أهلها عنها[(1)].

إلا أن تصدّر ابن عبد البر للدّفاع عن الصّحابة لم يمنعه من تأكيد ما وقع فيه بعضهم من زلاّت كما هو الحال مع أبي محجن الثقفي، الصّحابي الجليل، قال أبو عمر: وكان أبو مِحْجَن هذا من الشّجعان الأبطال في الجاهليّة والإسلام، من أولي البأس والنّجدة، ومن الفرسان البُهم، وكان شاعرا مطبوعا كريما، إلا أنه كان منهمكا في الشّراب، ولا يكاد يُقلع عنه، ولا يُردعه حدّ ولا لوم لائم، وكان أبو بكر يستعين به، وجَلَدَه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الخمر مرارا[(2)].

❁ **مصادر «الاستيعاب»**

من المعلوم أن التّصنيف في تراجم الصّحابة قد ظهر ـ على الأرجح ـ منذ أوائل القرن الثّالث الهجري بـ «كتاب الصّحابة» لأبي عبيْدة معمر بن المثنى (ت208هـ/ 823م)[(3)]، ثم تلته مجموعة ضخمة من المصنّفات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- معرفة من نزل من الصّحابة سائر البلدان لعلي بن المديني(ت245هـ/ 859م)[(4)].
- الصّحابة لأبي حاتم محمد بن إدريس الرّازي (ت277هـ/ 987م)[(5)].
- مُعجم الصّحابة لأبي الحسين عبد الباقي بن قانع (ت351هـ/ 962 م)[(6)].

---

(1) الاستيعاب (4/ 1692 ـ 1693).

(2) نفسه (4/ 1746).

(3) معرفة الصّحابة (1/ 6).

(4) الرّسالة المستطرفة (ص95).

(5) معرفة الصّحابة عند المحدّثين(ص88).

(6) تح صلاح بن سالم المصراتي. مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنوّرة، ط1، 1418هـ.

> الصّحابة لأبي حاتم محمد بن أحمد بن حِبّان البستي (ت354هـ/ 965 م)[1]

> المعجم الكبير لأبي القاسم سليمـان بن أحمد الطبراني(ت360هـ/ 970م)[2]

> كتاب المعروفين بالكُنى من الصّحابة والتّابعين وسائر المحدّثين لخلف بن قاسم بن سهل المعروف بابن الدّباغ الأندلسي(ت393 هـ/ 1002م)[3] .

والغالب على الظنّ أنّ ابن عبد البر قد اطلع على أغلب هذه المصنّفات إن لم يكن جميعها بحكم كثرة استقصائه عن كلّ مصدر متضمّن لمادّة بحثه. لقد كان ابن عبد البَر في منتهى الحرص على توثيق مادّته بدءا بالإحالة إلى «الاستيعاب» نفسه، مثال ذلك قوله أثناء تعرّضه للمختلف فيهن من زوجاته ﷺ: وأمـا اللـواتي اختلـف فـيهن ممـن ابتنى بها وفارقها أو عقد عليها، ولم يدخل بها، أو خطبها ولم يتم لـه العقـد منهـا، فقـد اختلف فيهن، وفي أسباب فراقهن اختلافا كثيرا يوجب التّوقف عن القطع بالصّحة في واحدة منهن، وقد ذكرنا جميعهن كلّ واحدة منهن في بابها من كتاب النّساء مـن كتابنـا هذا، والحمد الله وحده[4]. هذا إلى جانب إحالاته المتكرّرة إلى بقيّة مؤلّفاته مثل «كتـاب الإنباه على القبائل والرّواة»[5]، وكتاب «التّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»[6]، وكتاب « الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمّنه الموطـأ مـن معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيـجاز والاختصار»[7].

---

(1) تحقيق بوران الضناوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1/ 1408هـ، تحت عنوان «تاريخ الصّحابة الذين روي عنهم الأخبار».

(2) تح حمدي عبد المجيد السلفي، نشر وزارة الأوقاف، العراق، ط1/ 1398هـ-1978م.

(3) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس(1/ 272).

(4) الاستيعاب (1/ 46)، وكذلك ما ورد بشأن أبنائه ﷺ ، الاستيعاب(1/ 50 ـ 51).

(5) انظر: الاستيعاب (1/ 25، 26، 27)، (4/ 1602، 1619).

(6) نفسه (1/ 40)، (4/ 1601، 1703، 1807، 1816).

(7) نفسه (4/ 1621).

لقد استعان ابن عبد البر في «الاستيعاب»، فضلا عما سبق ذكره، بمصادر عديدة ومتنوّعة، مستثمرا إياها الاستثمار الجيّد، بدءا بطبقات محمد بن عمر الواقدي(ت209هـ/ 824 م)[1]، وطبقات محمد بن سعد (ت230هـ/ 941م)[2]، وتاريخ خليفة بن خياط(ت 240هـ/ 951م)[3]، وتأريخ الصّحابة، والتّاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري(ت 256هـ/ 869م)[4]، والتّاريخ الكبير لزهير بن حرب ابن أبي خيثمة (ت279هـ/ 892م)[5]، وتاريخ محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/ 922م)[6]، والكُنى و الأسماء لأبي بشر محمد بن أحمد الدُّولابي (ت310هـ/ 922م)[7]، ومُعجم الصّحابة لأبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي(ت317هـ/ 929م)[8]، وكتاب الصّحابة لمحمد بن عمرو بن موسى العقيلي(ت322هـ/ 934م)[9]، ومعجم الصّحابة، وكتاب الحروف في الصّحابة لسعيد ابن عثمان بن السكن(ت335هـ/ 946م)[10].

وبقدر ما أصرّ ابن عبد البر في الكثير من المناسبات على التّذكير بأسماء مصادره فقد اكتفى في مناسبات أخرى بنقل الخبر عن المؤلِّف مباشرة دون تحديد الكتاب المعتمد، مثال ذلك قوله عند ترجمته لجابر بن سُليم: ويُقال سليم بن جابر، والأكثر جابر بن

---

(1) الاستيعاب (1/ 117، 311).
(2) نفسه (1/ 117).
(3) نفسه (4/ 1705).
(4) نفسه (1/ 119، 4/ 1641).
(5) نفسه (4/ 1819، 1875).
(6) نفسه (1/ 227).
(7) نفسه (4/ 1615، 1616).
(8) نفسه (1/ 1620).
(9) نفسه (1/ 1616).
(10) نفسه (4/ 1873).

سليم، أبو جُري التميمي الهُجيمي... قال البخاري: أصحّ شيء عندنا في اسم أبي جُري الهُجيني جابر ين سُليم»[1]، مشيرا إلى تقصيره، قال أبو عمر: ولم يذكر البخاري جبّار ابن سلمى، ولا جبّار بن صخرة[2].

لقد تمكّن ابن عبد البر بفضل درايته الواسعة بعلم الرّجال من أن يوثّق مادّته، مقارنا ومرجّحا بين الأقوال، بانتقائه المحكم للمصادر الأوْلى بالاعتماد، شاهد ذلك على سبيل المثال لا الحصر تقديمه موسى بن عقبة، وابن إسحاق على الواقدي لأنهما أكثر توثيقا عند أهل الحديث وعموم المؤرخين، وهو ما أضفى على مادّة كتابه مزيد الاحترام، وبوأ ابن عبد البر لأن يُصبح بحقّ حافظ الأندلس في زمانه.

۞ «الاستيعاب» في الميزان

يندرج كتاب «الاستيعاب» في إطار إسهام الأندلسيين في المكتبة التّاريخية، وقد استطاع ابن عبد البر أن يصنع من هذا «الدّيوان» مصدرا بقي ذكره على كلّ لسان، محقّقا من وراء ذلك إشعاعا علميّا على مرّ القرون وامتداد العصور بالرّغم من عدم مغادرة ابن عبد البر بلاد الأندلس. ويعود تحقيق «الاستيعاب» لكلّ ذلك التألق والإشعاع لأكثر من سبب:

- المنزلة العلميّة التي احتلّها «الاستيعاب» منذ وقت مبكّر كما يتجلى ذلك من خلال الإشادة به من كلّ مطّلِع عليه من داخل الأندلس وخارجها.

- ما احتوى عليه «الاستيعاب» من مادّة تاريخيّة وحديثيّة، وما اشتمل عليه من إضافات مقارنة بما سبقه من أعمال.

---

(1) الاستيعاب (1/ 255).

(2) نفسه (1/ 230).

> ما كان لطلبة ابن عبد البر من جهود في التّعريف بـ «ديوان» شيخهم، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبو محمد علي بن حمد بن حزم (ت456 هـ/ 1063م) صاحب المذهب الظاهري، وصديق ابن عبد البر وتلميذه، الذي كان كثير الرّواية عنه، والإشادة به، ومحمد بن أبي نصر الأزدي المشهور بالحميدي(ت491هـ/ 1097م) أحد أعلام الأندلس بعلم الحديث رواية ودراية[1]، والحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني (ت498هـ/ 1056م) رئيس المحدّثين بقُرطبة في زمانه[2]. وعبد الرحمن بن محمد بن عتاب بن محسن (520 هـ/ 1126م) صديق الغساني وصِنوه في التّلقي عن ابن عبد البر[3].

> تصدّر «الاستيعاب» لفترة طويلة قائمة المصادر في علم الرّجال، حيث نجد له حضورا مكثّفا في خيرة ما ألّف من أعمال في الفترات اللاحقة مثل «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث، والأدب، وذوي النباهة والشّعر، لعبدالله بن فتحون الحميدي (ت 488هـ/ 1059م)، و«ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك» للقاضي عياض بن أحمد اليحصُبي(ت544هـ/ 1149م)، و«فهرسة محمد بن خير الإشبيلي(ت575هـ/ 1161م)، و«أسد الغابة في معرفة الصّحابة» لابن الأثير الجزري(ت630هـ/ 1332م) الذي قال مثمّنا جهود ابن عبد البر: ورأيت أبا عمر قد استقصى ذكر الأنساب وأحوال الشّخص ومناقبه وكلّ ما يعرفه به حتى أنّه يقول هذا هو ابن أخي فلان، وابن عم فلان، وصاحب الحادثة الفلانية، وكان هذا هو المطلوب من التعريف، وأما ذكر الأحاديث

---

(1) تذكرة الحفّاظ (4/ 1219).

(2) الصلة (ص142 ـ 143).

(3) نفسه (ص349).

وعللها وطرقها فهو بكُتب الحديث أشبهه»[1]، دون أن ننسى كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني(ت852هـ/ 1460م) الذي نقل عن «الاستيعاب» زهاء ألف وثمانمائة ترجمة، كما استعان به في أكثر من أربعمائة موضعا في كتابه «تهذيب التهذيب».

وككلّ إنتاج بشري فإنّ كتاب «الاستيعاب» ظهر وهو يشكو بعض العيوب، وفي مقدّمتها عدم اشتماله لكلّ الصّحابة، وهو ما تفطّن إليه ابن عبد البر مبكّرا، مما جعله يوصى تلميذه الغساني قائلا: «أمانة الله في عنقك، متى عثرت على اسم من أسماء الصّحابة لم أذكره إلا ألحقته في كتابي في الصّحابة»[2]. أما غير ذلك من العيوب، أو مما اعتبره البعض في عداد العيوب فيمكن تلخيصه في الآتي:

- تضمّن «الاستيعاب» بعض الأخطاء التّاريخيّة، وهذا لعمري جدّ طبيعيّ باعتبار «الاستيعاب» خلاصة جهد بشري، إلاّ أنّ ما يجب التّنبيه إليه أنّ ما وقع فيه ابن عبدالبر من زلاّت ليست بالكثيرة، ولا بالخطيرة، هذا فضلا عن أنّ الكثير منها لا تُعدُّ أخطاء بالنّسبة إلى من اطلع على ما ورد في مقدّمة «الاستيعاب»، من ذلك زعم بعضهم إيراد ابن عبد البر لغير الصّحابة، وكأني بهم لم يفقهوا ما جاء في المقدّمة من أنّه سيذكر كلّ من أدرك النّبي ﷺ بمولده، وهو ما أعاد التّذكير به في أكثر من مناسبة[3].

---

(1) أسد الغابة (1/ 11).

(2) الروض الأنف في تفسير سيرة ابن هشام (6/ 334).

(3) مثال ذلك ما قاله إثر ترجمته لأسعد بن سهل بن حنيف الأنصاري، أبو أمامة: هو أحد الجلّة من العلماء من كبار التّابعين بالمدينة، ولم يسمع من النبي ﷺ شيئا، ولا صُحبة، وإنما ذكرناه لإدراكه النبي ﷺ بمولده، وهو شرطنا. الاستيعاب (1/ 82).

وعموما فقد تصدّر علماء جهابذة لذلك، منبّهين إلى ما ورد في «الاستعاب» من أخطاء، وذلك من خلال ما ألّفوه من مصنّفات جليلة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: « ذيْل على الاستيعاب» لابن عبد البر لأبي علي الغسّاني(ت498هـ/ 1104م)[1]، و«ذيل كتاب الاستيعاب» لأبي بكر محمد بن محمد ابن خلف المعروف بابن فتحون الأريوالي الأندلسي(ت519 هـ/ 1125م)[2]، و«التّنبيه على أوهام ابن عبد البر» لنفس المؤلف[3]، و«الاستدراك على الاستيعاب» لإبراهيم بن يحي الطليطلي القرطبي، المعروف بابن الأمين(ت544هـ/ 1149م)[4]، و«الاستدراك على الاستيعاب» ليوسف بن عبد العزيز اللّخمي المعروف بابن الدّباغ الأندلسي(ت546هـ/ 1151م)[5]، و«الرّد على ابن عبد البر والتّنبيه على أغلاط» لعقيل بن عطيّة القضاعي المراكشي(ت608 هـ/ 1211م)[6]، و «إكمال التّذييل لأبي بكر بن فتحون على كتاب الاستيعاب» لأبي العباس أحمد بن محمد بن ميمون المالقي المعروف بابن السكان[7]، و«استدراك على الاستيعاب لمحمد بن عبد الواحد بن إبراهيم الغافقي الغرناطي(ت619هـ/ 1222م)[8]، و«ميدان السّابقين وحلبة الصّادقين المصدّقين في عرض كتاب الاستيعاب» لسليمان بن موسى بن سالم الكلاعي

(1) تذكرة الحفاظ (4/ 1234).
(2) الصّلة (ص577).
(3) نفسه (ص577).
(4) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص213).
(5) طبقات الحفّاظ (ص47).
(6) الحلل السّندسية في الأخبار التونسيّة (2/ 28).
(7) نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج (ص90 ـ 91).
(8) طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر (ص497).

الأندلسي(ت643هـ/ 1265م)[1]. هذا إلى جانب ما استدركه ابن الأثير الجزري(ت680هـ/ 1281م) في كتابه «أُسْد الغابة في معرفة الصّحابة»، وابن حجر العسقلاني(ت 852 هـ/ 1448م) في كتابه «الإصابة في معرفة الصّحابة».

> استطراد ابن عبد البر في ذكر ما حصل بين المسلمين من فتن[2]، وكثرة توسّعه في الجوانب التّاريخيّة بالإضافة إلى نقله عن المؤرّخين، وهو ما نبّه إليه ابن الصّلاح: ومن أجلّها وأكثرها فوائد كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر، لولا ما شانه به من إيراده كثيرا مما شجر بين الصّحابة، وحكايته عن الإخباريين لا المحدّثين، وغالب على الإخباريين الإكثار من التّخليط فيما يروونه»[3].

إلاّ أن ذلك لا يعتبر عيبا في نظرنا لأنّ الرّجل كان يُريد مساعدة غيره على تمييز الطيّب من الخبيث مما يدور على ألسنة النّاس من أخبار حول الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم والبحث لها عما يؤيدها من حيث القبول أو الرّفض، بعيدا عن القراءات المتسرّعة، والاستنتاجات المسقطة. وهو ما نحن في أشدّ الحاجة إليه اليوم، لأنّ الكثير مما ورد من أخبار عن ذلك الجيل كانت مُصطنعة، أفلح أعداء الأمّة قديما في حبكها، وها قد هبّ أنصارهم اليوم يُحْيونها، وما تسلّل إلى بعض المقرّرات والمناهج الدّراسية، وبعض الكتب والموسوعات، وعبر أعمدة بعض الصّحف والمجلات وغيرها من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية بالإضافة إلى العدد المتزايد من مواقع الانترنت بأكثر من لغة لخير دليل على ذلك؟

---

(1) الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب (ص122).

(2) الشّاهد في ذلك ما ذكره بشأن بُسر بن أرطأة بن أبي أرطأة القرشي، وما ارتكبه من فضائع في حق من تشيعوا لعلي رضي الله عنه. الاستيعاب(1/ 157- 166، 366، 369، 383، 595)، وكذلك ما أورده بشأن أبي الغادية الجهني، الذي كان يتباهى بقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه، الاستيعاب(4/ 1725).

(3) علوم الحديث (ص292).

❁ كيف السّبيل للتّعريف بالصّحابة والتّشجيع على الاقتداء بهم؟

لقد قدّم لنا ابن عبد البر في «الاستيعاب» مادّة غنيّة بلُغة سهلة وأسلوب سلس، كانت محلّ اهتمام جُلّ الباحثين قديما وحديثا، استطاع أن يحقّق بفضلها نسبة عالية مما كان يتطلّع إليه، حيث عرّف بمن هم أحقّ بالتّعريف، مُشيدا بمناقبهم، متحفّظا عما وقع فيه بعضهم من زلاّت، دون المسّ بعدالتهم، ولا النّيل من منزلتهم، منبّها بذلك إلى ما لهم من حقوق على إخوتهم في الدّين، فماذا عسانا فاعلين في ظل ما نعيشه من تحوّلات داخلية ومتغيّرات عالمية؟

إن التعريف بالصّحابة الكرام في الحال والمآل يستدعي الكثير من اليقظة والخبرة والجُرأة لمراجعة ما كُتب، ومتابعة ما يصدُر بين الحين والآخر من غثّ وسمين، لتثمين السويّ لكي يعرفه الناس، وفضح الزّائف، والردّ عنه لكي يحْذروه.

وباعتبار العصر عصر رَقْمنة، وتعلّم وتعليم عن بُعد، فقد عُدْت إلى شبكة الانترنت، وأبحرت فيها لساعات طوال علّني أعثر عن مدوّنة تعرّف بالصّحابة الكرام، تعريفا علميّا دقيقا فلم أعثُر عن شيء ترتاح إليه النّفس، ويطمئن به القلب، اللّهم بعض الأعمال المتواضعة، الواقع أغلبها تحت وطأة الضّغوطات الطائفية والمذهبيّة الضيّقة، بل وللأسف الشّديد فإنّ بعض المواقع قد تضمنت من المواقف ما وصل بأصحابها إلى حدّ تقديس الصّحابة الكرام كلاًّ أو بعضا، في إطار مواجهتها لمواقع أخرى بلغ المكر بأصحابها إلى حدّ رفع العدالة عن الصحابة الكرام، بل إن ما يشكوه بعض المدوّنين من جهل بغيض وحقد دفين وصل بهم الأمر إلى حدّ المسّ بأعراض نفر من الصّحابة الكرام.

إن ما يلحق رموز الأمة اليوم من صنوف الإساءة والتشويه ليستدعي من المشرفين على المجال الدّيني والعاملين فيه الكثير من العمل الممنهج الدءوب باعتماد مختلف وسائل التواصل الممكنة للحدّ من هذه المواقف المتشنجة، والحملات المغرضة، درءا لكل ما من شأنه إحداث المزيد من التشرذم والكراهية والحقد.

خاتمة

لقد أردنا من خلال هذا التّقديم الاعتراف بالفضل لعَلَم من أعلام المغرب والأندلس تقديرا لما بذله من جهود في خدمة الإسلام من خلال تصنيفه لعمل موسوعي، خصّه للتعريف بالصّحابة الكرام تديّنا وعلما وتضحية، اعتقادا منه أن لا سبيل لتحقيق الالتزام بالإسلام عقيدة وممارسة إلا بوجود القدوة الصالحة، وفي مقدّمتها، بعد رسول الله ﷺ، جيل الصّحابة الكرام.

كما سعينا من خلال هذا العمل إلى التأكيد على أن «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ما كان له أن يحدث كل تلك الحركة العلمية، ويحقّق كل ذلك الإشعاع لولا موسوعيّة ابن عبد البر وتواضعه، وما التزم به من أمانة علميّة في النّقل وموضوعية في التّحليل والاستنتاج والاستدلال، مما جعل منه ولفترة طويلة خير معين على تغطية ما حصل من نقص، ووضع حدّ لما جدّ من اختلافات، فضلا عن كونه أحد الشواهد على ما بلغته الحركة الفكرية في الأندلس من نُضج وإشعاع.

وعموما فإن ما بلغه العالم اليوم من تقدّم رهيب في وسائل الاتصال والمعلوماتية ليستوجب من المسلمين أفرادا وجماعات العمل على استثمار تلك المكاسب الاستثمار الأمثل لما يخدمهم حاضرا ومستقبلا بدءا بالتعرّف عن رموزهم، والتّعريف بهم، والذبّ عنهم. ولقد سبق لنا في ندوة دولية أقامتها المنظمة الإسلامية للتّربية والثقافة والعلوم أن اقترحنا إقامة جامعة افتراضيّة إسلاميّة مستقلّة تُديرها نُخبة من كبار العلماء والخبراء من مختلف التخصّصات والطوائف الإسلامية، يوكل أمر تمويلها والإشراف عليها إلى المنظمة المذكورة مع الاستئناس بآراء كبار المرجعيات

الدّينية والفكريّة من أبناء الأمة. وأجدني اليوم في حاجة لإعادة طرح هذا المقترح لما قد يـحقّقه من مردود إيجابي. ولعل تحقيق موسوعة «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» التّحقيق اللائق به، والتّقديم له بدراسة علميّة متخصّصة، وترجمته لأكثر اللغات انتشارا في العالم، وجعله في المتناول ورقيا ورقميا يكون أول لبنة من لبنات ذلك المشروع المنشود، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

والسلام عليكم ورحمة الله

فهرس المصادر والمراجع

- ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي، تكملة الصّلة، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1967م.
- ابن الأثير علي بن محمد الشيباني، أُسْد الغابة في معرفة الصّحابة، نشر دار الفكر، بيروت، (د.ط.ت).
- الأصبهاني أبو نعيم، معرفة الصّحابة، تح محمد راضي عثمان، مكتبة الدار بالمدينة المنوّرة، 1408هـ.
- الباتلي أحمد، معرفة الصّحابة عند المحدّثين، كتبة الرّشيد، الرّياض، ط1/1426هـ، 2005م.
- بدوي عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، 1962.
- ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الصّلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم، الدار المغربية للتأليف و الترجمة، مصر، (د.ط)، 1966م.
- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، منشورات كلية الدعوة بطرابلس، ط.1/1989م.
- التلمساني أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تح إحسان رشيد عبّاس، نشر دار صادر بيروت، (د.ط)، 1388هـ/1968م.
- ابن حجر أحمد بن علي بن محمّد العسقلاني، الإصابة في تميز الصّحابة، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط. ت).
- حلمي عبد المنعم، منهجيّة البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، سلسلة "دعوة الحقّ"، ع 183، س 16، مكة المكرّمة، 1418هـ.
- الحميدي محمد بن أبي نصر، جذْوَة المقْتبس في تاريخ ولاة الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1410هـ/ 1989م.
- الذّهبي محمد بن أحمد، تذكرة الحفّاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط.ت).

- السراج محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السّندسية في الأخبار التونسيّة، تح الحبيب الهيلة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.
- السهيلي عبد الله بن عبد الرحمن، الروض الأنف في تفسير سيرة ابن هشام، تح عبدالرحمن الوكيل، نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ط.ت).
- السّيوطي جلال الدين، طبقات الحفّاظ، تح علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1/1339هـ- 1973م.
- ابن الصلاح أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، علوم الحديث، تح: سرح نور الدّين عتر، دار الفكر، سوريا، ط 3، 1404هـ/1984م.
- الضبي أحمد بن يحي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، نشر دار الكتاب المعري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1410هـ/ 1989م.
- الظاهري أبو محمد علي بن محمد بن أحمد، رسائل ابن حزم الأندلسي، تح إحسان رشيد عباس، مطبعة الهنا، مصر، (د.ط.ت).
- ابن عبد البَر أبو عمر يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطّباعة والنّشر، القاهرة، (د.ط.ت).
- ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله، القصد والأمم في التّعريف بأصول أنساب العرب والعجم، طبعة السّعادة، ط1/1350هـ
- ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله، الاستغناء في أسماء المشهورين من حملة العلم بالكُنَى، تح عبد الله مرحول السّوالمة، دار ابن تيميّة للنّشر.
- عتر نور الدّين، منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ط3، 1401هـ/1981م.
- العسكري الحسن بن عبدالله، تصحيفات المحدّثين، تح محمود أحمد ميرة، نشر المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط1، 1402هـ/1982م.
- ابن فرحون إبراهيم بن علي، الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلميّة، بيروت (د.ط.ت).
- الكتاني محمّد بن جعفر، الرّسالة المُستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرّفة، دار قهرمان للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا، (د.ط)، 1986.